

الحديث الشريف :

كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ

دكتور/عبد الرحمن محمد المراكبي

مدرس العقيدة والفلسفة

في كتاب « هذه الخلق » ص ١٢٠ البخاري (١) :

عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنهما قال :

« دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقق بالياب . فأتاه تاس من بني تميم .

فقال : اقبلوا للبشرى يا بني تميم .

قالوا : بشرتنا فأعطنا (مرتين) .

ثم دخل عليه تاس من أهل اليمن .

فقال : اقبلوا للبشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنوا تميم .

قالوا : قد قبلنا يا رسول الله .

قالوا : جئنا نسألك عن هذا الأمر (٢)

وفي رواية : (جئناك لتفتق في الدين ، وللسألك عن أول هذا الأمر

ما كان) (٣)

قال : كان الله . ولم يكن شيء غيره . وفي رواية : (ولم يكن شيء قبله) (٤)

(١) أنظر فتح الباري شرح صحيح البخاري : ٢٨٦/٦ ط بيروت .

(٢) أي عن حكمة وشأنه كيف كان .

(٣) كتاب التوحيد : أنظر فتح الباري : ٤٠٣/١٣

(٤) كتاب التوحيد : أنظر فتح الباري : ٤٠٣/١٣

وفي رواية غير البخاري (ولم يكن شيء معه)^(١) . وفي رواية أبي معاريه (كان الله قبل كل شيء) . وكان حرسه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السماوات والأرض . فننادي مناد : ذهب ناقلك يا ابن الحصين . فانتظرت فإذا هي يقطع دونها السراب . فوالله لو ددت أني كنت تركتها .

وفي رواية التوحيد : (وأيم الله لو ددت أنها قد ذهبت ولم أقم^(٢)) .

• • •

والحديث الشريف يوضح لنا معالم الحق في أمور ثلاثة ضلت فيها أقدام كثير من الخلق :

أولاً : وجود الحق سبحانه كصفة ثابتة ، وقوة مهيمنة ، ذي قدرة خالقة مبدعة ، وإرادة نافذة مخصصة ، وعلم شامل محيط .

ثانياً : أن العالم - وهو كل ما سوى الله تعالى - حادث مسبوق بقدومه . وأنه لاقديم إلا الله تعالى : وهو ما يدل عليه صراحة قوله صلوات الله وسلامه عليه : كان الله ولم يكن شيء غيره .

ثالثاً : تسلسل الخلق في الوجود ، والإشارة إلى أول مخلوق في هذا الوجود .

وكل من هذه القضايا الثلاث قد حظيت باهتمام المفكرين والعلماء ، ودارت حولها كثير من المعارك الفكرية والعلمية .

• • •

(١) فتح الباري ٦: ٢٨٩ (٢) فتح الباري ١٣: ٤١٠

(٣) وفيها يتبين لنا كيف كان حرص الصحابة على ملازمة رسول الله ﷺ والتفقه في الدين .

١ — قضية الألوهية

أما قضية الألوهية ، فنجد أن كانت موضوعاً للبحث الفلسفي والفلسفي تعتبر من أهم وأبرز المباحث التي لعبت دوراً هاماً وبارزاً في محيط التفكير الفلسفي والميتافيزيقي ، بل وفي محيط البحث العلمي كذلك . وما تزال ، وستظل تشغل اهتمام كثير من المفكرين والعلماء في كل يوم ، وفي كل مكان .

ولقد أثرت هذه القضية بوفرة الآراء ، وتضارب الأنظار والأفكار فيها ، نظراً لما يدور حولها من تشويه ، أو تشويه . ومن إنكار أو وجود ولقد ظلت طغمة من الناس يجهلون وجود الله قد بما وحدها . بل ويرمون المؤمنين به بأفن العقل ، وهالة الفكر . لأنهم يؤمنون — في زعمهم — بالله لا زوا ، وبعبود لا إشاعة .

ولقد طغت هذه النزعات الإلحادية الزائفة طغياناً كبيراً في عالم اليوم وهي تنادي بالاكفاء الذاتي للإنسان ، والتفكير المادي للوجود والسكون وكأنه ليس شئ . وراء هذا العالم ، وليس شئ منهج الاستدلال وراء منهج التجربة البشرية فشكل مالا يتناوله الحس بجموده . فندم — ففرض وجوده محال .

وعلى ذلك : فله في نظرهم خرافة ، والدين وهم وخداع . ونحن معهم في أنه لا يمكن لنا أن نرى الله بأعيننا — وحاشا أن تدرك الأبصار — ولا يمكن لنا أن ندرك بحواسنا . وإلا لكان مادة يحويها المكان والزمان . ونحن معهم كذلك في أنه لا يمكن لنا أن نبرهن على وجود الله كما لو كان شيئاً مادياً ؛ لأن الله ليس موضوعاً من موضوعات التجربة فضعه في معتبراتنا ونبرهن عليه تجاربنا .

ولهذا كان لهم شيء من العذر عندما قالوا : إنهم لم يرووا الله .

ولكنه لا عذر لهم مطلقاً عندما قالوا : إنه لا إله .

ولست أدرى بأي منطق ، وبأي علم يشكر هؤلاء دعوى وجود الله ؟

فهل كشف العلم هؤلاء عن كل ما في هذا الوجود ، فضلاً عما وراء هذا الوجود ؟

وهل كل ما لم يصل إليه علم الإنسان اليوم يعتبر غير موجود ؟

إن العلم لا يعرف الكلفة الأخيرة ، وما زال يكشف كل يوم جديد ، بل وما تزال وسائل البحث العلمي وأدواته قاصرة ومأجزة عن أن تصل بالإنسان إلى معرفة كل شيء وإلى الغوص وراء كل حقيقة ، وما زال الإنسان يطور وسائل بحثه ، ويعاود بحث ما لم يستطع معرفته ، ودرك ما لم يستطع إدراكه ، وما زال يدأب في بحثه ، ويبحث الخطى إلى العلم وينفذ السير إلى المعرفة . عسى أن يصل إلى علم ما هو جاهل به . وهو يفترض سلفاً إمكان الوصول إليه .

إن عجايل الحياة اليوم أمام العلم أكثر من أن تحصى ، وأمرار الوجود أكثر من أن تحصى ، وإن استكناه أسرار الحياة والوجود يحتاج من البشرية إلى أضعاف ما عاشته البشرية مع البحث والعلم والدرس ، وربما لم تصل منه إلا إلى القليل — بل هو ذلك — حتى يفجئها الموت وتدرجها القيامة .

ولهذا يأبى منطق العلم ، ومنهج البحث أن يشكر الإنسان ما لم يستطع — برأسائه العاجزة ، وبسجده الواضح — أن ينفذ إلى درك حقيقته ، ومعرفة كنهه .

ولهذا أيضاً ، كان من لجهل المشين ، والتعصب المقيت ، والتفكر لمنهج البحث العلمي ما زعمه أديباء العلم عندما قالوا : إنه لا إله ، وسدوا بذلك

على أنفسهم منافذ الإدراك وأرصدوا أمام مداركهم الأبواب، وأنسكروا
— فجرد الإنكار — دون حاجة لهم — وجود هذه الحقيقة الظاهرة الباهرة
(ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن
الآخرة هم غافلون) (١)

وصلى الله العظيم : (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى
ولا كتاب منير ثانياً عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم
القيامة عذاب الحريق) (٢)

لأنهم يريدون إلهاً مادياً محسوساً .

والحقيقة أنهم يؤمنون بكثير مما ليس بمحسوس مجرد أنهم يلتفتون
بأنارده ويركون منافعه ولكنهم لا يعلمون حقيقة ولا يدركون كنهه . فلماذا
ينسكرون الله ؟ والسكون كله والوجود جميعاً أثر من آثاره ؟

لأنهم يعيدون إلى الأذهان شبه الجاهلية الأولى من الدهريين والماديين
حينما أرادوا رقية هذا الإله (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل
علينا الملائكة أو نرى ربنا . لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً
كبيراً) (٣)

(وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين
من قبلهم مثل قوم نوح) (٤)

لقد قال بنو إسرائيل لموسى : (لن تؤمن لك حتى ترى الله جبراً) (٥)

(٢) الحج : ٩

(١) الروم : ٧

(٤) البقرة : ١١٨

(٣) الفرقان : ٢١

(٥) البقرة : ٥٥

ولقد آراهم الله من آياته ودلائل وجوده ، وشواهد قدرته ما لا يمكن إنكاره : وقد تبعهم فرعون يمشوده بغياً وعدواً وهم يقولون فرقاً ونحوها : (إنا نادر كون) . ويطلبونهم تديهم (كلا إن معي ربي سيهدين) ويجعل الله لهم إلى النجاة طريقاً فيجعل لهم طريقاً في البحر يبساً . وما إن جاوزوا أليم حتى وجدوا قوماً يمكنون على أمتامهم فإذا هم يقولون لنبيهم (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال : إنكم قوم تجهلون أغير الله أبنيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين) (١)

لقد أرادوه حجراً يمشوده ، أو مجسداً يقسوته لأنهم يريدون إلهاً مادياً محسوساً .

وهكذا يشعظ الإنسان الذي كرمه الله وقد خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وسخر له مافى السماوات ومافى الأرض جميعاً منه ليقدر على عبادة الله وحده لا شريك له .

وهكذا تريد مادية اليوم أن تكون : وصدق الله العظيم (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قومك تشابهت قلوبهم) ولكن الدلائل لا تقيد إلا من عقلها ويرقنها . (كذلك بينا الآيات لقوم يوقنون) (٢) .

إنها شبهة قديمة جاهلية يرددها المتعلمون اليوم وهم يزعمون التقدم والعلمانية ، ويرمون غيرهم من المؤمنين بالتخلف والرجعية .

إن الآيات البينة والشواهد الناطقة ، والدلائل الواضحة على وجود الله أكثر من أن تحصى ، وهي من الواضوح بحيث لا تخفى . فادلة للنظام ، والإبداع ، والعناية ، والخلق وغيرها مما أشبهها العلاء بحفاً ودرساً

ونخصت بها كتب الفلسفة والكلام هي أعظم من أن يتحملها بحث أو مقال .

إن المشكلة ليست في قوة الأدلة على وجود الله ، أو عدم وضوحها وظهورها ولكنها تكمن في هذا التحول الخفاير بالمادة من الروح ، وفي هذه الغفلة عن الله .

في هذا الطريق الخادع الذي أحدثه العلم المادي ، وظن أهله أنهم به ملكوا الدنيا ، واستغنوا به عن الله ، وفتن به الناس من حولهم فانشغلوا بالمادة عن الروح ، وبالدنيا عن الدين ، وأضهوا تروساً في جملة الحياة المادية ، حتى فقدوا رصيدهم مع دوارها وحركتها الدائمة ، فعصفت بهم الشكوك ، واجتاحهم الإلحاد ، حتى أعلنوا الحرب على الله ، وأعلنوا العداء لكل دين وخرجوا على الصالح من الأعراف والتقاليد ، وأطلقوا في هذه الحياة يربدون ، ويدمرون للمبادئ والقيم ويأتون من الأفعال ما ينف منه الشيطان ، وكانهم بذلك قد فتحوا للناس فتحاً جديداً ، ورضعوا أيديهم على كشف عيسى جديد .

والحق : أن تهاقت هذه النزعات الإلحادية المتطرفة لا يفيق ، وما يتدحرون به من الأوهام والشكوك لا يثبت أمام النقد البناء ، والمنهج العلمي الصحيح ، وحتى لو أنهم رأوا الله وجاءهم الله والملائكة لبيلا لن يؤمنوا وإن يدعوا (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فهاطلوا فيه يرجون انقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) (١) . ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مجين) (٢) (ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنوا حتى يرووا العذاب الآليم) .

(١) الحجر : ١٤

(٢) الأنعام : ٧

(١٤ - مجلة)

وهكذا كذا تحول الإنسان من الله . أغلقت بصيرته ، وضل عقله
وراع قلبه (فلما زاعوا أراغ الله قلوبهم) .

وصدق الله العظيم سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض
بغير الحق وأن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وأن يروا سبيل الرشد
لا يتخذوه سبيلا ، وأن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا
بآياتنا وكانوا عنها غافلين (١) .

ومهما كان من الحملات العنيفة ، والتخرصات السكاذبة ، وضروب
الإنكار الصريحة إلا أن وراء تلك المزاعم العقلية العريضة يكمن دائما
لرمان باطن ، أو شعور غفي بأن ثمة شيئا غيبا وراء العالم الطبيعي المرفى ،
ومهما كان من أمر البراهين العقلية ، أو الاستدلالات المنطقية فإن هذا
الإيمان قد يبقى بمنأى عن كل أرحاب وكأنا يستمد قوته من مصدر علوي
هيمات أن تزعزعه الشكوك ، « ولأننا لو قلنا إلى أعماق ظلمات الشعور
الإنساني لما وجدنا ملحدين بمعنى الكلمة ، « ومن ثم فقد ذهب البعض
إلى أن الإنسان موجود متدين قبل أن يسكن حيوانا مدنيا ، أو كائنا
اجتماعيا » (٢) .

ولعل ذلك هو سر هذه الحملة الشرسة المسمورة التي يشنها هؤلاء على
الله والدين ، لأنهم يريدون أن يتخلصوا من هذا السلطان الذي يستولى على
قلوبهم ، وكأنهم يحملون في حناياهم الإقرار بهذا الدين والاعترافي بهذا
الإله فلا فكيف يحاربون ما لا وجود له في نظرهم .

وهذه الحياة المادية وإن أضلت الناس عن الله ، وباعدت بينهم وبين
الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ومهما طالت غربة الناس عن ذواتهم .

(١) الأعراف ١٤٦

(٢) مشكلة الإنسان : ١٨٥ د : ذكرى إبراهيم .

ويهدمهم من أرواحهم فلا شك أن لهم حنيناً إليها . ولا يمكن لشيء ما أن يقضي على هذه الفطرة ، ولا أن يفقد الإنسان روحه . لأن الإنسان لا يمكن له أن يعيش بأحد جزأيه وقد خلقه الله جسداً وروحاً . بل هو روح بأعظم جزئيه فلئن غلبت طبيعته يوماً فلن تموت روحه أبداً .

وهذا هو سر عودة كثير من الناس إلى الدين في هذه الأيام ، ولا سيما في الدول التي لوادت القضاء على الدين ، وذلك بعد أن أفقرت قلوب الناس منه .

وقد يبدو غريباً أن يدخل الدين في تفكير الناس في هذا العصر ، وأن يذكر في الزحام الذي يساق فيه الناس سوقاً إلى مطالب وغايات كلها مادية ، وكلها عالص لحساب الجسد وليس للروح منه نصيب . قد يشير هذا عجبا ولكن الذي يتجاوز بنظاره هذا المستوى السطحي للحياة يرى أن وراء هذا المستوى دنيا أخرى غير هذه الدنيا التي يتقلب فيها الناس ، وأن الذي يسندو لنا من مادية متحركة في موازين الحياة ليس إلا ثوبا مستعاراً (١) .

(١) الله ذاتاً وموضوعاً : ١١ - ١ : عبد الكريم الخطيب .

٢ — حدوث العالم

أما حدوث العالم وقدمه : فهي قضية من أبرز القضايا الفلسفية والكلامية ، وقد حظيت باهتمام العلماء منذ أن كانت موضوعاً للبحث ، ولا تزال حتى اليوم . والفلاسفة والمتكلمين فيها خلاف مشهور .

يقول فيلسوف قرطبة (أبو الوليد بن رشد) في كتابه ، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال : « لأنه ليس في الشرع أن الله كان موجوداً مع عدم الخلق ، ولا يوجد هذا نصاً عليه أبداً .

إن ظاهر الشرع إذا تصفح ظهر من الآيات الواردة في الإنشاء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة ، وأن نفس الوجود والإيمان مستمر من الطرفين . أعني غير منقطع . . . وذلك أن قوله تعالى : (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء يقتضى بظاهره أن وجوداً قبل هذا الوجود : وهو العرش والماء ، وزماناً قبل هذا الزمان . أعني المفقون بصورة هذا الوجود الذي هو عدد حركة الفلك .

وقوله تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات) يقتضى أيضاً بظاهره أن وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود .

وقوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) يقتضى بظاهره أن السماوات خلقت من شيء (١) .

وفصل ابن رشد بين موجودات ثلاثة :

١ — موجود : وجد من شيء (أي من مادة ومن سبب فاعل) والزمان متقدم عليه . وهذه هي جميع الموجودات من الأجسام التي تدرك بالحواس .

٢ — وموجود . لم يكن من شيء ، ولا من شيء ، ولا تقدمه زمان . وهو (الله) تعالى . والاول : محدث باتفاق . والثاني : قديم باتفاق .

٣ — وموجود : من شيء ، وسكنته لم يكن من شيء ، ولا تقدمه زمان . وهذا هو العالم بأسره (١) .

وهذا الأخير هو عن الخلاف بين الفلاسفة والمتكلمين والخلاف في أرلية وجوده .

ويرى أبو الوليد : أن هذا النوع من الوجود ليس محدثاً محدثاً حقيقياً ، ولا قديماً قديماً حقيقياً . فإن المحدث الحقيقي فاسد بالضرورة ، والقديم الحقيقي ليس له هبة (٢) .

وعن معه من هذا القسم . وانكناً لا نسلم له أن هذا النوع ليس بمحدث من الحقيقة وعدم الفساد إلى المستقبل — صلى الله عليه وسلم — لا يدل على القسم في الماضي . وانكناً القدم في الماضي هو الذي يدل على عدم الفساد في المستقبل . والذي معنا ليس كذلك .

وهذا الذي ذهب إليه أبو الوليد متبعاً فيه رأى أرسطو ومن تبعه من فلاسفة الإسلام وكأى نصر ، وإن سبناه هو ما يستلزمه مفهوم في القول ، بموجب لوجوده فإن من لوازم إطلاق واجب الوجود على

(١) أنظر المقال : ٤٠ ، ٤١ ، يعني أصوله التي هي : العقول والنفوس والأجسام الفلكية وصورها الحسية والتنوعية ، والمادة ، والعنصرية وهي المواليد الثلاثة : الحيوان ، والنبات ، والمعدن وأصول تلك العنصرية وهي العناصر الأربعة : الماء ، والتراب ، والهواء ، والنار والزمن . هذه الأشياء كلها قديمة هي نظر الفلاسفة .

(٢) أنظر المقال : ٤٢

الله تعالى عند العلامه أن يكون العدم (١) مصححاً له في الوجود . ضرورة لزوم حصول لعلته التامة ، وعدم انقضاء كعدمه .

وحسب كل المصكح محتاجاً إلى الواجب . فهو مسبووق به حتماً ، والعللة متقدمة - ضرورة - على المفعول ، إذ لا تمضي العلة إلا على أنها علة للمفعول ولا يعقل وجود المفعول إلا إذا تقدمته عليه .

وقد يتصور القاري . لهذا القرب أن فيه شيئاً من التناقض ، فكيف يكون وجود المفعول مع علة ضرورة ملازمته لها . ثم يكون متأخراً عنها ضرورة تأخر المفعول من علة إذ لا يعقل وجود المفعول إلا إذا تقدمته علة ؟

ولكن العلامه يرون أن هذا التقدم ليس تقدماً زمانياً - كما يمكن أن يفهم - ولكنه تقدم ذاتي . لأن المفعول يجب أن يكون مصححاً لعلته في الزمان (٢) .

فكل ممكح حالة هي أقدم منه ؛ لأن كل علة هي أقدم في وجود الذات من المفعول وإن لم يكن في الزمان ، كتقدم حركة الإصبع على الخاتم ، كتقدم حركة اليد عن حركة المفتاح ، وهذا مثل ما تقول : حركت يدي فتحرك المفتاح أو ثم تحرك المفتاح ، ولا تقول : تحركت يدي فتتحرك المفتاح أو ثم تحركت يدي . وإن كانا معاً في الزمان . هذه بعدة بالذات (٣) .

-
- (١) أعني بعضه وهو الصادر عن الواجب صدوراً أولاً من غير واسطة
(٢) وهم يقسمون التقدم والتأخر تقسيماً غير حاصر إلى خمسة أنواع : بالذات ، والوضع ، والطبيع ، والشرف ، والزمان .
(٣) الإشارات والتعديلات : ١-٥/٣ تحقيق دليلاً

«وأيضاً فإن ما يجب بغيره وجوده بالذات متأخر عن وجود ذلك الغير ومتوقف عليه» (١).

وهي ذلك رأى الفلسفة الإسلامية كما يمثلها من سبيلها والفردى وابن رشد من متأخريه. أى معسهم الأول — هو القول بقدم العالم قديماً لا حديثاً، وإن كان حادثاً حينئذ ذاتياً.

وهذا هو معنى قول دأبى الوليد: «إنه ليس محدثاً حينئذ حقيقةً ولا قديماً قديماً حقيقةً».

يقول الإمام حجة الإسلام «الغزالي» :

«والذى استقر عليه رأى جماهير المتقدمين والمتأخرين: القول بقدمه — أى العالم — وأنه لم يزل موجوداً مع الله تعالى، ومعلولاً له، ومسروقاً عنه، متأخر عنه بالزمان، مسروقاً الممتلئ للعة، ومسوقة النور للشمس، وأن تقدم البرى عليه كتقدم العلة على المفعول، وهو تقدم بالذات والزمنة لا بالزمان» (٢).

وم يشهد من هذا رأى من المتقدمين والمتأخرين إلا القليل (٣).

وهي ذلك فالقديم عندهم له منضار: قديم بالذات، وقديم بالغير.

والقديم بذاته هو واجب الوجود، وهو الله سبحانه، الذى تقتضى ذاته الوجود والكمال المطلق فلا يحتاج إلى غيره لا في وجوده، ولا في كماله.

(١) النجاة. ٢٢٧ هـ، بجانب الإلهى: ٧٢، د / الجبى

(٢) تهافت الفلاسفة: ٨٨ تحقيق دنيا

(٣) كاشف المهر من مذهب أفلاطون، والكندى من فلاسفة الإسلام، وقد ترقب، جالينوس، من القدماء لا يدرى إن كان العالم قديماً أو محدثاً

أما القديم لعيره : فهو الممكن الذي لم يسبق بعده ، وإن كان مسوقاً
بغيره وهو «واجب سيقاً ذاتياً» لا مائياً كما تقدم .

وهذا الممكن قد صدر عن الأول بطريق التبيين ، والمعروف مرتبط
بجنت التامة ، وأعلى بالعدة التامة : ما كانت مستجيبة لكل شروط التأثير
و الأثر .

وما دامت العلة تامة فلا يمكن أن يتأخر . فقول عنها زماناً ، وهو ذلك
هو القديم قدم العلة .

ولقد كان ابن سينا كأستاذ (أرسطو) غير جازم ، لقدم «أرسطو»
يرى أن العلة الفاعلية يجب أن تسبق في الزمن معلولها فيقول :

«والعامل الفاعلية وجود سابق على معلولاتها ، أما العلة الضرورية فهي
مقارنته في الزمان لمعلولاتها» (١) .

ويقول الأستاذ يوسف كرم : «إن أرسطو يعترف في كتابه (الجدل)
بأن مسألة قدم العالم من الأمور الجدلية التي تحمل أكثر من جواب واحد» (٢) .

ولهذا رأينا أن سينا مؤزحاً : يجرم مرة بالقدم ويدافع عنه لأن
وجوب الوجود بذاته واجب الوجود في جميع صفاته وأحواله فلا يجرى
له تغير ، لأحواله وتبدل الشئون ، ومرة يتحدث بلغة غير لغة الجرم ويقول :
«ولكن لم يمنع أن يكونا معاً في الزمان» (٣) .

(١) ابن سينا بين الدين والمفسره : ١٠٢ نقلنا من مقاله «اللام لأرسطو»
د/ محمود خراطة

(٢) ما بعد الطليعة : ١٨٩

(٣) الاشارات : ٨٤ / ٣

يقول الدكتور : « نعم » ويسود أن ابن سيد -- في مصاحبة العالم في
الوقوع لواجب لوجود -- و توفيقه بين الدين والفلسفة قد يكتب بتجوز
العقل يقدم العالم قدما زمانيا دون حاجته إلى التشدد و أن يذهب أحد من
ذلك إلى ما تتطلبه فكرة الواجب من لزوم قدمه في الزمان لزوما عقليا (١).

ولقد قال المتكلمون بالحدوث ، ولما ذكر أدلتهم عن الحدوث أم قسم
من المقدم ، ولم أر فيها قرأه في الموضوع دليلا واحداً فقد سلم من إيراد
أو إبطال أو اعتراض .

يقول الدكتور / حموده غرابية : « والفقهاء بافتتاح حوادث متعاقبة في جانب
الماضي لا إلى نهاية والذى تنوع عليه دليل المتكلمين ما يرى اليوم حاجة
إلى دليل صحيح (٢) ».

ويرى الأستاذ الإمام : أن برهان التطبيق بمباركة من سقطه ، وأن
برهان التصانيف لا صحة له من أى وجه تخبر (٣) .

وقد أغض (الدواني) في إثبات حدوث العالم وأما ، ثم عتذر عن
الإحالة بقوله :

ولما أشبهت الكلام في هذا المقام لأنه أصغر من أصول العقائد الدينية ،
وقد كثر فيه تمارك الآراء ، وتصادم الآراء ، ولم يأت جمهور المتكلمين
في هذا البحث بشيء يتفق بقلب الأدباء بن اجتهدوا ، و أراد المنوع
المعبد الذى يأياها العبيد للمستقيم أشد الإباء ، بقيت نفوس النافذين غيما
حائلة على مذهب الحكماء ، بل الأئمة التى أوردوها ، شأهم ذلك فلا أمروه .

(١) الجانب الإلهي : ٤٧١

(٢) الأشعرى : ١٤٢ - د. حموده غرابية

(٣) الشيخ محمد عده بين الفلاسفة والمتكلمين : ١ - ٣٦ تحقيق دليا

وقد علق الأستاذ الإمام عليه ، بأنه قد شمع عليهم و رسالة الزوراء
ما هو أكثر من هذا ، لا أنه لم يخالفهم في العلم الإجمالي بل خالفهم إلى
صعطة (١) .

و عليه أن نشأت حدوث العلم لا يحتاج منا إلى جهد كبير إذا كنا
نؤمن به نظرية الخلق وأختيار الواجب كما أفادت بهذا التصريح القرآنية من
مثل قوله تعالى : (وربك يخلق ما يشاء ويختار) (٢) (الله ملك السموات
والأرض يخلق ما يشاء) (٣) . (قال كذلك الله يخلق ما يشاء) (٤) . (إنما
قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) (٥) .

وسمى بالاختيار ما ذهب إليه الفلاسفة من أن هذا العلم قد صدر
عن الواجب برضاء

ولكن اختار : من شاء نفس ، وإذا لم يشأ لم نفس . (والله قادر
على ذلك) . وعلى ذلك نقول :

العلم — وهو كل ما سوى الله تعالى — ممكن — .

وكل ممكن حادث — فالعلم حادث .

يقول الأستاذ الإمام (٦) : من أحكام الممكن أنه إن وجد وجد يكون
حادثاً ، لأنه قد ثبت أنه لا يوجد إلا بسبب .

(١) الشرح محمد صمد بن العلامة والكلاميين : ١/٧٠ تحقيق دنيا .

(٢) القصص : ٦٨ .

(٣) الشورى : ٤٩ .

(٤) آل عمران : ٤٧ .

(٥) يس : ٨٢ .

(٦) أنظر رسالة التوحيد فلاح غلاب : المعرفة عند مفكرى

أصوليين : ٦٩ .

فقد ثبت أن وجود الممكن من غيره خلال إيجاده لا يكون موجودا لاستحالة إيجاده ، ووجوده لأنه تخصيص للحاصل

فيكون معدوم ضرورة . وجود الممكن إذن مسبوق بصدقه . وهو معنى الجبروت .

وإذا كان العدم لا يصبح إلى زمان على رأى الفلاسفة . فهو زعم باطل . لأن الحادث بهذا المعنى لا يحتاج إلى التقدير المختار . وإنما هو أثر للعلّة المرجبة التي لا ينفك أثرها عنها .

يقول الدكتور غلاب : ويمكن أن يعترض على مبدأ لارليه بأنه يتعارض مع مبدأ الخلق (١) .

وهو كذلك ، لأن إرادة الواجب إنما ترجعه إلى انعدام الإيجاده ، والقصد أو الإرادة إنما تكون في الآن الذي دون الأول ، فاعلمة رعب تفهيد إلى معلولها وتفيد وجوده بعد أن تتصور وجود ذاتها بتحقيق منها للمعلول إفادة الوجود . أما إذا كان معها في الوجود فلا تتحقق إفادة ولا استفادة .

يقول الإمام الشيخ محمد عبده : وهل لمصر القوي بأفعلة ، فاعلمة إنما تفيد وجوده . معقول بعد أن تتصور وجود ذاتها وكون المصنوع معها في آن واحد يستلزم أن تكون العلة والمعلول كل منهما قد صار وجوده مع الآخر فلا تتحقق إفادة والاستفادة (٢) .

ويقول الأستاذ الممد : رالحق أن كل ما قبل من القدم خلفه ليس له طائل (٣) .

(١) مشكلة الألوهية : ٨٧ .

(٢) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاسيين : ١٧٨-١٧٩ .

(٣) الفلسفة القرآنية : ٩٣ .

ولعل القول بالتقدم هو الحق مع أرسطو من القول بنظرية الخلق
لأنه لا يتفق مع القول بالتقدم .

أما أن يقول فلاسفة الإسلام بهما ما هو قول لاتباعه المقول .

ولو أن الفلاسفة اكتفوا بالقول بتقدم العالم فقط لما احتجوا ، ولكنهم
مع ذلك يسلون الباري سبحانه إرادته واختياره . لأن ذلك يؤدي —
في زعمهم — إلى نقص الواجب تعالى . فيكون ناقصا إرادته مستكبرا بغيره
وهو محال .

ولست أدري أي ذلك هو النقصان ؟

أن يكون الباري سبحانه ذا إرادة واختيار يعمل ما يشاء ويفتار —
أو أن تكون له الخيرة دون — فيكون إله جامداً مسلوباً لاختيار
والإرادة ؟

من إرادة الواجب واختياره — على غير ما ذهب إليه الفلاسفة —
لا يمكن أن يؤدي إلى استكمال الواجب بغيره بل فيه استكمال الغير وكال
الواجب ، وفيه استكمال النفس وكال الداع .

وهي أساس قدره الحق ، وكال الواجب لأنه فاعل مختار يتم له
الغلب على « أن كل ممكن حادث » .

وايستبحر حاجه إلى ما ذهب إلى المتكلمون من إثبات حدوث العالم
من طريق حدوث الأعراس والأجرام .

وهذا الدليل في نظرنا من أقوى الأدلة على حدوث العالم ، وهو دليل
علم يجرى في الزمان والمكان والحركة والمادة ، ويجردات جميعا ، فلس
دون الواجب إلا الممكن .

ومن ثم فالعالم حادث غير قديم ، وهو حادث بالاشهاد ، وسأحدث
بالنوع جميعا .

وما يتدرج به الملائكة من استحالة صدور حادث من قديم . وإلا لزم
تخلف المفعول عن علته التامة . كما أن الله متقدم على العالم : فإن كان بالحدث
فيما قديمان ، وإن كان بالزمان والزم من له لزم تقدم زمان على نفسه
بالوجود .

فنقول لهم : إن العلة التامة بما تتم بإرادة لواجب حين العام والوقت
الذي أراده فيه . و زمان من جملة عدم وتقدم الداعي عليه لا يزمى ووقت
لأن الزمان متقدم فيما بين الله والعدم فلا يزم تقدم الزمان على نفسه .

ويمكن أن يرجع بمسألة الحدوث إلى تصور اوحى يستقي منها الدين .
والقرآن الكريم والسنة المطهرة فيهما الأدلة المتوفرة على حدوث وإيس
بصريح مرعية ابن رشد من أنه ليس في الشرع أن الله كان موجوداً
مع عدم الخلق ولا يوجد ذلك فيه نصاً أبداً . . وإن لم يوجد الزمان
مستمر من الطرفين غير منقطع .

ولا فدا تفهده الآيات الدالة على تقدم الداعي سبحانه وحدث
ما عناه كقوله سبحانه (هو الأول والآخر (١)) أى الأول قبل كل شيء
بغير بداية ، والآخر بعد كل شيء بغير نهاية .

وقوله سبحانه (لله الأمر من قبل ومن بعد) (٢) أى من قبل الخلق
ومن بعد الموت .

وإذا كان الله قديماً : وهو محل انفاق بين جميع المقلاء ، وهو الخالق

(٢) الروم : ٤

(١) الحديد : ٣

لكل شيء، كما قال سبحانه (وخلق كل شيء فقدره تقضوا) (۱) (إنّا كل شيء خلقناه بقدر) (۲) (الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) (۳) (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه) (۴) . فإن مبدأ الخلق بداية كما قال سبحانه : (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده) (۵) (الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون) (۶) (أو لم يروا كيف بدأ الله الخلق ثم يعيده) (۷) (ألم يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرثكم من السما والأرض) (۸) (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تقولون) (۹) .

ويقول الرسول ﷺ : ليس نفس مغرقة إلا الله حالقها، (۱۰) .

وإذا كان الله قد بدأ الخلق له بداية فقد كان الله ولا شيء غيره ، أو ولا شيء معه كما جاء بذلك الحديث الشريف .

وأما ما ورد من رواية التوحيد « كان الله ولم يكن شيء قبله ، فبدأ خلقه » ، لإمام ابن حجر بأن رواية الباب « كان الله ولم يكن شيء غيره » ، تؤيده رواية غير البخاري « كان الله ولم يكن شيء معه » من رواية أبي معاوية « كان الله قبل كل شيء » ، والقصة متحدة فاقترن ذلك أن تكون رواية « التوحيد » قد وقعت « الخلق » وفيه دلالة على أنه لم يكن شيء غيره « لا السماء ولا العرش » ولا غيرهما (۱۱) .

(۱) الفرقان : ۲ (۲) القصص : ۴۹ .

(۳) الزمر : ۶۲ (۴) الأنعام : ۱۰۲ .

(۵) الروم : ۲۷ (۶) الروم : ۱۱ .

(۷) العنكبوت : ۱۹ (۸) النمل : ۶۴ .

(۹) يونس : ۳۴ (۱۰) انظر فتح الباري ۱۳/ ۳۹۱ .

(۱۱) فتح الباري ۶/ ۲۸۹ ، ۱۳/ ۴۱۰ .

وقد تمقت الرسل جميعاً ، وتواترت نصوص الكتب المبذولة عليهم على هذا المعنى . ولا يتوقف صحة الوحي عليه لأنه من الممكن إثبات وجود الله عن غير طريق الحدوث كطريق لإمكان أو النظام أو العثية أو غيرها ، ثم يثبت صدق الرسول بالهجرة ، ومن الرموز أعلم حدوث العلم . وهذا هو مذهب بعض المتكلمين (١) .

وماد ذكره من رشد أيضاً كدليل على إمتد الوجود والبرهان والأزل والأبد من قول له تعالى ، (وهو الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) (٢) . وقوله سبحانه ، (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) وقوله جل ذكره ، (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) (٣) ، لا يشهد له شيء من ذلك على قدم العلم به ، بل هو السبوات والأرض متأخر من العرش والماء والظلم والروح وسيره ، هناك وجود قس وجردهما هو العرش والماء . سكن أي دس في هذه الآية أو في غيرها يدل على قدم العرش والماء ، وذلك زمان بمقترن هذا الوجود لكنه غير قديم ، كما أن هذا الوجود كذلك غير قديم ، وقد خلقت السموات والأرض من شيء . سكن ما الدليل على قدم هذا الشيء (دخان كان أو غيره) ؟

كذلك ليس يصحح ما يرحمه من رشد أيضاً من أن الزمان عرض مصدر تصور حسيته ، لأن الزمان متدر حركته هذا الزمان ، وحيث قد ثبت حدوث العالم ، فكل العالم لا زمان ، بل هو حدث حدوثه العالم لأنه من جلته .

(١) أنظر المواقف والنهاية ٩٥ حاشية

(٢) إبراهيم ٤٨

(٣) الحديد : ٤

العلم الحديث :

وهيبدأ عن أعلام العلمانية ، واجدل المقيم الذي لا يعي من الحق شيئاً فستمع في الجماعات الدينية وما يقر له العلم الحديث عن هذه المعصلة التي أشكلت على القدماء ، وتدرع بها بعض المحدثين من أجل إكار وجردافه ،

لقد أثبت علماء الفلك ، ومطقات الأرض وغيرهم أن العالم حدث وجد بعد أن لم يكن ، ومع أن الإسلام لم يذكر مثله في وجهه ، إلا أن السماء اليوم أصبحت لا يحسبون لها عمر هذه الكائنات وزمن هذه المخرقات تجد بداً حقيقياً دقيقاً .

يقول «جورج جاييه» في كتابه تاريخ الأرض : إن السكون بدأ تطوره منذ مليوني سنة ، أما الأرض فقد نشأت حديثاً جداً إذ لم توجد إلا منذ مليونين من السنين فقط ، وظهرت الحياة على الأرض منذ مليون سنة ، والحيوانات البرمائية منذ ٢٠٠ مليون سنة ، أما الحيوانات الثديية التي يعتبر الإنسان أحد فروعها فقد بدأ ظهورها على الأرض منذ ١٢٠ مليون سنة ، والإنسان هو أحدث لواحد من كل الأرض إذ بدأ على صورته الإنسانية منذ ٥٠ مليون سنة (١) .

وتجربوا ذلك التحديد . هناك قانون « الطاقة المتاحة الذي كتشفه (كارنو) واستنتج منه (لىكويزيوس) و (لورد كيلفن) . أن تصور العالم بهم ينتج واحد وليس له سوى نهاية ممكنة (الموت الحراري) .

وهذا القانون يثبت أن الحرارة تثقل «المحاسب» وجود حراري إلى «عدم حراري» والعكس غير ممكن .

(١) أنظر المقائد الإسلامية ٥٥

وبناء عليه فإن عدم كفاءة عمل السكون يزداد يوماً بعد يوم ولابد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات ، وعندئذ تنبسط الطاقة المفيدة للحياة والأحياء وتنتهي الحياة .

وبما أن الحياة لا تراث قائمه ، والطاقة موجودة بهذه المعنى أن السكون قد بدأ منذ وقت لا يسمح بمبدأ هذه الطاقة الموجودة فيه وهذه المعنى حدوثه ، ولو كان قديمي لتبطلت هذه الطاقة من زمن طويلاً (١) .

ويقول الدكتور : «أشوارد نوثر كسبل» :
فالعالم قديم بكل وصريح أن هذا السكون لا يمكن أن يكون أرب (٢) .
ويقول الدكتور : «بيير واستوفر» :

كنت أعتقد أن المادة أراءه أبدية ، ومن كما يستطيع أن يعبر شكل المادة ، فلا من حالة الدورية أيضاً مادة ، وهكذا كانت عقيدة الكثيرين من العلماء ، فإلى اكتشاف الطاقة الدورية حتى تبين أن المادة يمكن أن تبطل إلى مادة ، والطاقة إلى مادة ، لذلك أصبحت فرضية الخلق وحدوث العالم من الضروريات الواضحة العلمية (٣) لأن التحول لا يعود على الأرض .

ويقول الدكتور : «لورنتز وليمز» :
علم الملك مثلاً يشير إلى أن لهذا السكون بداية قديمة وأن السكون يسير إلى نهاية عتومة ، وليس مما يتفق مع العلم أن يعتقد أن هذا السكون أزل له

(١) أنظر ، لإسلام شادي ، لوحيه الدين خال

(٢) ألقه بتجلى في عصر العلم ٢٦ جون كلوفر

(٣) راجع محاضرات في العقيدة ٢٠٢ أحمد الهادي

بداية ، أو أبدي ليس له نهاية فهو قائم على أساس التغير ، . وهكذا ،
يثبت عدم احديت حدوث العالم وعدم أريية ابدية كما يزعم اس رشد
وغیره من العلامه .

٣ - أول المخلوقات :

ليس لنا عما سبق أن العالم - وهو كل ما سوى الله - حادث مسبوق
بعدمه ، وأن الله وحده هو الأزلي لا أول لوجوده . وهذا المعنى هو ما يدل
عليه صراحة قول الله ﷻ : « كان الله ، ولم يكن شيء غيره » ، وكان هنا
لا معنى للمضى فقط . ولما كتبنا تفيد معنى الدوام والاستمرار كذلك .

ولما كان العالم حادثا : وجد بعد أن لم يكن - فما هو أول هذه
الموجودات من اعادئات ؟ إلى ذلك يشير الحديث الشريف بقوله ﷺ :
« وكان عرشه على الماء » ، والذي ينساق إليه الفهم في هذه العبارة ، أن العالم
ينقسم إلى قسمين : علوي وسفلي . وأن أول المخلوقات السفلية هو : (الماء) .
وأن أول المخلوقات العلوية هو : (العرش) وذلك بمقتضى قوله « وكان
عرشه على الماء » . لأن معناه أن أول المخلوقات : (عرش على ماء) . وليس
يعنى بهذا أن العرش ملاصق للماء محمول عليه . وإنما يعنى أن العرش في
جهة الماء ، وأن الماء تحته في جهة السفلى .

وذلك مثل قولنا : « السماء على الأرض » ، أى فوقها دون ملامسة أو
ملاصقة لها .

ولكن : إذا كان الماء والعرش عنوقين . فلماذا جهر الحديث بمعناه
بالمقيد (كأل) ولم يقل (عنوق) فقال . « وكان عرشه على ماء » كما قال . كان

أفقه ولم يكن شيء غيره . ثم هير مع السحاب والارض بلفظ (خلق)
 فقال : « وخلق السماوات والارض » . فو كان العرش و الماء مخلوقين لغير
 الله بلفظ (خلق) فقال : « وخلق عرشه عن اسمه » كما قال « وخلق
 السماوات والارض » .

وأقول . لعل ذلك ي شهد ب على أن الماء والعرش هما أول المخلوقات
 لأنه لو غير بلفظ (خلق) بدت (كان) مع العرش والماء في خلط الامر
 على الناس فلا يدرون أيهما خلق أولا « العرش و الماء » أو « السموات
 والارض » لأن السلف بالواو لا يقتضي ترتيبا ولا تمقا

ثم : الخبر بلفظ (كان) مع الله . وبلفظ (كان) يصاح مع العرش
 والماء لا يقتضي قسم العرش والماء . وأيهما غير مخلوقين . لأن ذلك مع
 بقوله « ولم يكن شيء غيره » فنعت اسمية .

وعلى ذلك فبذلك مقابلة بين (كان) الأول في قوله « كان الله ولم يكن
 شيء غيره » و (كان) الثانية في قوله : « وكان عرشه على الماء » فهو في
 الأول معنى الدوام و الأول والأبد . وفي الثاني معنى الحدوث في جانب
 الماضي . واستعملها في المعنيين مشهور . وهذا ظاهر . إذ لا يتصور من
 كان عنده مسكة من عقل أن (كان) الثانية . مثل (كان) الأولى والآلية :
 لما في ذلك من التناقض الظاهر في من الحديث : لأنه قد سبق صرحه أن
 يكون مع الله شيء . بقوله « ولم يكن شيء غيره » فلا يعقل . بعد ذلك أن
 يقال : وكان معه في الأول العرش والماء .

(١) قال الفي : هو حص مستقر . لأن القديم من ثم يسبقه شيء ولم
 يمارسه في الأول . لكن أشر بقوله « وكان عرشه على الماء » إلى أن الماء
 والعرش كانا مبدأ هذا العلم لكونهما حافداً من السماوات والارض - فتح
 الباري ٢٨٩/٦

ولكن إذا كان العرش والماء هما أول الخلق ، فأيهما خلق أولاً :
العرش أو الماء ؟

أقول : إنه لا يصح في الحديث على ذلك .

ولم ينفرد أحد من مظاهر الحديث أن الماء خلق أولاً كما يفيد ظاهر
اللفظ في قوله : « وكان عرشه على الماء » .

وقد ورد ذلك أيضاً في أحاديث أخرى بأسانيد مختلفة منها ما ورد عند
أحمد والترمذي بسند صحيح مرفوع : « على أن الماء خلق أولاً (١) » ،
وعلى هذا يمكن القول : بأن أول مخلوقات المسادية على الترتيب هو
(الماء) .

وأن العرش هو أول المخلوقات المسادية العلوية ، خلق بعد الماء .
أما أن العرش هو ذلك الأملأ كما يقول الحنابلة ، ليس لديهم ما يؤيد
ذلك أو ينفيه .

وأما كون (الماء) هو أصل الموجودات كلها كما ورد في بعض المثلث ،
وهو من الفلاسفة ، فلم يجد عليه دليلاً صحيحاً صريحاً في الإسلام اللهم
إلا ما تفرد به أحمد من حديث يزيد عن همام عن قتادة عن أبي مسعود عن
أبي هريرة قال : قلت يا رسول الله إنى إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني
فأستشعر من كل شيء ، قال : « كل شيء خلق من ماء » ، قال ابن كثير : وهذا
المعتمد على الصحيحين ، إلا أن أبا يعقوب عن رجل من السمرقنديين وأحمد بن حنبل
والترمذي يصحح له ، وقد رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة
مرسلاً (٢) .

(١) أنظر تعقبات الإسلامية : ٥٤ الشيخ سيد سابق .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٧٧:٣

وأما قوله تعالى : (وجعلنا من الماء كل شيء حي) (١) ، وقوله : (والله خلق كل دابة من ماء) (٢) فلا يفيد أنه أصل كل المخلوقات بل الأحياء منها فقط .

وقد نص صاحب الملل والنحل ، ونقله عنه صاحب دلو قف ، عن طاليس الملقب ، أن أول المخلوقات هو الماء ، ومنه خلق كل شيء : من السماء والأرض وما بينهما .

يقول : الشهرستاني ، في التوراة في السفر الأول ، أن مبدأ الخلق هو جوهر حلقه الله تعالى ثم ظهر له أربعة الحسنة فذايت أجزائه فصارت ماء ، ثم ثار من الماء بخار مثل الدخان خلق منه السماوات وظهر على وجهه الماربد مثل زبد البحر خلق منه الأرض ، ثم أرضها بأجبال ، ثم يقول الشهرستاني وكان طاليس الملقب إنما ينق مذهبهم من هذه المشكاة النورية (٣) .

وسكت لم يؤثر على هذا النص في سفر التكوين في التوراة التي بين أيديها ، ولا نرى ما إذا كان ذلك في التوراة القديمة قبل أن تحرق أو من ثم لا يمكن لنا التعويل عليه .

نعم قد ورد ذلك عن كتب الأحبار كما نقله الرازي وسكت به لا يعتمد به في حكم الإسلام .

وعلى ذلك فالذي نعده هنا : هو أن أول المخلوقات إلهادية هو الماء . كما أن أول المخلوقات العنصرية هو العرش ، وقد سبق بعد الماء ، وقد روى

(١) الأنبياء ٣٠ (٢) النور ٤٥

(٣) الملل والنحل ٢ : ٦٨ تحقيق د/ هـ ر .

« السدى » في تفسيره بأسانيد متعددة « أن الله لم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء » (١) .

وأما ما ورد في يوم ظاهره معارضه هذا الحديث ، لدى معارضه ما ورد في الحديث الصحيح عند أحمد والترمذي عن عبيدة بن الصامت أن النبي ﷺ قال : « أول ما خلق الله القلم ، ثم قال له أكتب لجرى بما هو كائن في يوم القيامة ، ومنه ما ورد من أن أول مخلوقات هو العقل » .

ومنه ما ورد في المواهب اللدنية من أن أول المخلوقات هو نور نبينا ﷺ ، أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر ، الحديث المشهور .

وعنده الأحاديث معها عالم يثبت صحته كحديث « العقل » وحديث « أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر » ومنها ما ثبت صحته كحديث أحمد والترمذي : « أول ما خلق الله القلم » .

وعلى فرض صحة عالم يثبت صحته من هذه الأحاديث ، فلا يبعد شيء منها التماس مع هذا الحديث الذي عندنا يلخص كل منها هي أنه « أول » في بابه : فالماء أول الموجودات البدئية السلبية ، والعرش وإن كان بعد الماء بغير الحديث الصحيح كما سبق - هو أول الأجرام المنوية ، والقلم والعقل هو أول المخلوقات المنوية (٢) ، والنور هو أول الأضواء المنوية ، وهكذا يقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه بعد ذلك : « وكتب في الذكر كل شيء » و « الذكر » قد ورد تفسيره « باللوحي المحفوظ » .

(١) فتح الباري : ٢٨٩:٦

(٢) ووقع في قصة مانع بلعظ : كان عرشه على الماء ، ثم خلق القلم فقال أكتب ما هو كائن ، ثم خلق السماوات والأرض وما بينهما ، فصرح بترتيب المخلوقات بعد الماء والعرش ، فتح الباري : ٢٨٩:٦

وهو جسم عظيم خلقه الله تعالى مسجل فيه كل شيء حتى يتالع عبده من شاء
من ملئه الأعلى وملائكته المكرمين ، وهذا المعنى هو ما يؤيده ظاهر
النصوص الصحيحة الواردة في صفته ومعناه .

ويرى البعض أنه عبارة عن علم الله المحيط الذي يتعلق به أثر
الموجودات كالحق ، وجرأها صغيره ، وكبيره ، ما كان منها وما يكون
والبعض يرى أنه ما يلوح للملائكة ليعبروه ، ويعبروا عنه

وأرى أنه لا ملحق لما في أول ظاهر الفصوص والخروج بها عن
معناه الحقيقي لهذا المعنى البصري مادام ذلك لا يعدم أصلاً من أصول
الإسلام والخروج عن الظاهر بدون منه ورة ملحقه غير جائز .

نعم قد نجد أ. ب. تأويل معنى « القلم » بأنه قوة منوية مجردة عن
المادة هذا إذا كان الكتاب هو الله تعالى مباشرة ، فتعني قوله عز وجل
« وكتب في الذكر كل شيء » والكتب في القلم كما ورد في حديث أحمد (لأن
الله ليس كقوله شيء) وروى كان الكتاب هو القلم المباشر للكتابة ، والله هو
الكتاب بمعنى الأمر به بأن يكتب فلا مانع من إرادة معنى الحقيقي للقلم ،
دون الخروج عن الجاه .

وظاهر من معنى الحديث : أن الروح والقلم عندنا بعد المساء
والعرش .

وأرى أنه لا معنى لإسكار الجردات على أنها مخلوقة لا حقيقة كما يقول
بعض فلاسفة الإسلام كابن سينا والفراي ومن تبعها عن يقولون بنظرية
الصور .

بعد ذلك يقول الرسول ﷺ :

« وخلق السموات والأرض » .

وبنى ذلك أن خلق السموات والأرض إنما جاء متأخراً عن خلق الماء والعرش والقلم ، وإن كان العطف بالواو لا يفيد هذا الترتيب إلا أنه قد وقع في قصة نافع بن زيد : « وكان عرشه على الماء ثم خلق القلم فقال : اكتب ما هو كائن ، ثم خلق السموات والأرض وما فيها » . فصرح بترتيب المخلوقات بعد الماء والعرش ، وفي رواية التوحيد : « ثم خلق السموات والأرض » ، ويؤيد رواية نافع ما ورد عند مسلم عن عبد الله بن عمر مرفوعاً : « إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض » . وكان عرشه على الماء » (١) .

ولكن أيهما أسبق خلقاً : السماء أو الأرض ؟

الرواية التي معنا لم تذكر لنا شيئاً من ذلك ، ولكن من الممكن لنا أن نجد ذلك واضحاً في قوله تعالى : « أقل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وثم علمون له أقداداً ذلك رب العالمين » ، وجعل فيها روايتي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين ففضلهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل معمل أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظنا ذلك تقدير العزيز العليم » (٢) .

فقد ذكرت الآية أن خلق الأرض كان أولاً ، كما قال سبحانه (هو

(١) راجع فتح الباري : ٢٨٩/٦ ، ١٣/٣ ، وما بعدها .

(٢) فصلت : ٩ - ١٢ .

الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات (١) .

أما قوله تعالى : (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغشس ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاًها) فتمنى أن دحر الأرض لاخلقها هو الذي كان بعد خلق السماء .

والدحر قد فسرهُ قوله تعالى بعد ذلك (أخرج منها ماءها ومرطها) ، هكذا فسرّها ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كما ذكره البخاري هذه تفسير هذه الآية المكية في صحيحه (٢) .

والذي يلتفت النظر في هذه الآية (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) أن السماء قد خلقت من مادة — كما قال ابن رشد ، ولكن ذلك لا يعني أن هذه المادة قديمة ، وليس له من دليل على ذلك — فإما هي هذه المادة ، أو ما هو هذا الدخان ؟ وهل هو أصل السماء فقط ، أو أصل السماء والأرض ؟ .

يجيب العلم الحديث — حيث لم يرد النص من القرآنية والتبوية ما يبين لنا حقيقة هذا الدخان — أن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأول في العلم الحديث وبين الدخان . . . للدلالة على الحالة الغازية الغالبة للمادة التي تتكون منها السكون في هذه المرحلة الأولى . . . « فالسكون قد تشكل من كتلة غازية تتسكون رئيسياً من غاز الهيدروجين ، وثانوياً من غاز الهيليوم بطلء الدورة ، وقد انقسم هذا السديم بعد ذلك إلى أجزاء متعددة ذات أبعاد وكتل (عظيمة) » وإن عملية تشكل السكون الأساسية من مكونات (هذا) السديم هم من انفصاله إلى أجزاء كونت في الأصل

كتلا مجرتية بدورها مجرات هذه الأخيرة إلى نجوم (ومنها كانت الكواكب) . . (ومن البواقي كانت المادة المنتشرة بين النجوم) (١)، والأرض داخله ضمن هذه المجرات التي كونتها هذه السكبل الغازية .

وهذا هو ما يفهمه أو يفسر به قول الحق سبحانه : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقنهما رجلا منا من الماء كل شيء غليظاً يؤمنون) (٢) .

وكانتا رتقا أي كان الجميع متصلاً ببعضه ببعض، متلاحقاً مترابطاً ببعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ففتق هذه من هذه فجعل السموات سماء والأرض سماء ، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء فأمرت السماء وأثبتت الأرض (٣) .

وعلى ذلك فالمادة الأولى (السديم أو الدخان على حسب تعبير العلم أو القرآن) قد خلقها الحق سبحانه ومنها خلق السموات والأرض (وما بينهن) وما بينهن هذا كما يقول العلم الحديث هو المادة المنتشرة بين النجوم، توصف على أنها سديم مظلم، أو مادة كونية منتشرة تتميز بأنها شديدة الخفاء، وهي كتل عظيمة تفوق بمجموع كتل المجرات ، وهي التي تعوق المقاييس الفوتومترية عند علماء الفلك (٤) .

ثم كان من الماء كل شيء حتى كما صرحنا بذلك الآية السكرية، وتعني الآية أن الماء مصدر كل شيء حتى كرامة جبروتية له .

يقوله بوكاي . . وهذا بما يتفق تماماً مع العلم : فالقائمت بالتحديد أن أصل الحياة مائي وأن الماء هو العنصر الأول المكون لسكل خلية حية (٥) .

(١) راجع: القرآن والتوراة والإنجيل والعلوم ١٧٢-١٦٨ موريس بوكاي

(٢) الأنبياء ٢٠ (٣) راجع تفسير ابن كثير ١٧٦/٣ ، ١٧٧

(٤) راجع : بوكاي ١٧٠ (٥) راجع : بوكاي : ٢١٢ ، ٢١٣

يقول ابن حجر بعد ذلك معلقاً على الحديث : وفيه جواز السق الـعن مبدأ الاشياء ، والبحث عن ذلك ، وجواز جواب العالم بما يستحضره من ذلك ، وعليه الكف لن خشى على السائل ما يدخل على معتقده ، وفيه أن جنس الزمان ونوعه حادث ، وأن الله أوجد هذه المخلوقات بعد أن لم تكن لا من غير من ذلك بل مع القدرة (١) .

وفي ذلك كراهية تعليق آمال المؤمن بما قبل هذه الدنيا الفانية دون الآخرة الباقية ، دار على ذلك قول أبي تميم لرسول الله ﷺ وقد قال لهم : اقبلوا البشرى يا بني تميم ، أي اقبلوا ما يقتضي عمله واعتقاده البشرى لكم في الآخرة كالتفقه في الدين والعمل به . قالوا بشرتنا فأعطنا ، ذكرت بعض روايات الحديث أنه : تغير وجهه ، أو رؤى في وجهه ، أي أغضبته ذلك ، أسفاً عليهم لأنهم آثروا الفانية على الباقية .

وفي حرص الصحابة على ارتياد مجالس العلم ، وملازمة رسول الله ﷺ ليتطوا العلم ويتفقهوا في الدين . وقد كان ذلك أحب إليهم من الدنيا وما فيها ، يشهد لذلك قول عمران وقد جاءه من يخبئه بشروء ناقته فقال : لينا فإذا هي بقطع دونها السراب (٢) . أي يقول بينه وبين رؤيتها . يقول عمران : غوا لله لو ددت أني كنت تركتها . أي ولم أقم قبل أن يسكن الرسول حديثه .

وهكذا : يعلمنا رسول الله ﷺ العقيدة الصحيحة كما عليه إياها ليتعرف الناس على حقيقة هذا الإله بعيداً عن جدل المتكلمين وأغلاط الفلاسفة ، وإلحاد الزنادقة ، (فذلكم الله ربكم الحق فإذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصفون) (٣) .

(١) فتح الباري : ٩ / ٢٩٠

(٢) والسراب : هو ما يرى نهاراً بالصحرى كأنه ماء وهو ليس كذلك

(٣) يونس : ٣٢